

الفصل الرابع

محاولات خادعة لاحتواء العالم الإسلامى

كان الغزو العسكرى الأوروبى للبلاد الإسلامية أحد المحاور التى سلكها الغرب لمواجهة الإسلام ، ولم يكن المحور الوحيد ولا الوسيلة الوحيدة فى سلوك الغرب . وقد رأينا منذ قليل كيف استخدم الغرب أو الدول الحليفة فى الحرب العالمية الأولى ، كيف استخدمت كل الإمكانيات العربية فى الحرب مقابل وعود كانت تلك الدول تنوى عدم الوفاء بها تجاه العرب بعد أن تضع الحرب أوزارها ويتحقق لها النصر .

وقد سبقت الحرب العالمية الأولى محاولات خادعة لاحتواء الإسلام كما واكبتها محاولات أخرى خادعة من جانب القوى العظمى فى الغرب والشرق معاً (أعنى روسيا البلشفية) .

ولكن المسلمين كانوا على حذر مما يقال لهم . وقد حماهم الله فلم يرمقوا فى أتون تلك الظواهر الخادعة كما ارتقوا فى أتون الوعود البريطانية إبّان الحرب ، وقاموا بثورتهم العربية التى اكتشفوا فى النهاية أنهم كانوا يقاتلون أنفسهم ويخطون خطوات سريعة إلى الهاوية ، والمحاولات الخادعة التى تعرض لها هنا فى إيجاز نعرضها حسب أهميتها غير ناظرين للترتيب الزمنى فى عرضها . وهذا يقتضى أن نبدأ بعرض الموقف الروسى بعد قيام الثورة البلشفية عام

١٩١٧

● البيان الروسى :

لم يكن لروسيا القيصرية نصيب فى الوطن العربى حسب اتفاقية « سايكس - بيكو » ، كما تقدّم . بل كان نصيبها من تركة الرجل المريض « تركيا » خارج نطاق الوطن العربى ، وقبل أن تنتهى الحرب العالمية الأولى بعام قامت الثورة البلشفية الحمراء فى روسيا وأطاحت بالنظام القيصرى ، وبسطت الشيوعية نفوذها على أرجاء البلاد . وأدرك قادة روسيا « الجديدة » مطامع القوى الأوروبية فى العالم الإسلامى . وبعد تفكير سريع ، والحرب العالمية الأولى ما تزال معلنة ، قرر البلاشفة أن يسبقوا أوروبا فى احتواء العالم الإسلامى وأن يتخذوا منه - من العالم الإسلامى - جبهة فعّالة لمواجهة أوروبا . وقد ساعدتهم الظروف إذ ذاك ، فقد وضعوا أيديهم على وثائق المعاهدات السرية والعننية التى عقدها القيصر - قبل الإطاحة به - مع الإنجليز ضد العالم الإسلامى بعامّة ، وضد العالم العربى بوجه خاص . هذه الظروف هيأت للبلاشفة أصول اللعبة التى يريدون القيام بها . فأعلنوا عن اتفاقية « سايكس - بيكو » ، وأفشوا أسرارها ، وتسببوا للإنجليز وفرنسا فى حرج شديد أمام من اصطنعوا معهم الود والإخلاص وجروهم إلى الحرب جراً (العرب) وبذلك بدأوا يغازلون العرب ويأخذون طريقهم إلى قلوبهم .

ثم أصدرت روسيا فى بداية عهدها الجديد بيانين : أحدهما لمسلمى روسيا نفسها ، وكان عددهم حينذاك عشرين مليوناً . وقد جاء فى ذاك البيان :

« لقد سقطت ممالك المغتصبين والقراصنة الرأسماليين - تعنى أوروبا - وإن الأرض تغلى تحت أقدام المعتدين والاستعمارين . يا مسلمى روسيا ، يا من خربت مساجدهم ، وهدمت بيوت عبادتكم نعلن لكم : أن عقائدكم الدينية ، وشعائركم ومنشآتكم الحضارية والقومية ستصبح ابتداءً من اليوم مصونة ، لن تمتد إليها يد آثمة . أقيموا حياتكم القومية فى جو الحرية ، دون أن يعوقها عائق . فلکم الحق فى ذلك » (؟ !) .

كان هذا البيان موجهاً لمسلمى روسيا ، ومما لا نزاع فيه أن البلاشفة قد نجحوا فيه . فإن من شأن بيان كهذا أن يساعد إلى درجة كبيرة على استقرار الأحوال الداخلية فى ربوع الدولة . وإسكات عشرين مليوناً من المسلمين مكسب رائع جداً للشوَّار ، وهم كانوا ما يزالون من أمس الحاجة إلى توطيد أقدامهم فى البلاد .

*

● وبيان إلى مسلمى العالم :

ويبدو أن البيان الأول قد أثمر بشكل ملحوظ وسريع ، لذلك أقدم البلاشفة على إذاعة إعلان آخر موجهاً إلى العالم الإسلامى يحمل نفس الطابع الذى أذيع به الإعلان الأول . يقول الإعلان أو البيان الشامل :

« يا مسلمى الشرق : يا إيرانيون ، يا أتراك ، يا عرب . يا من مارس المغتصبون القادمون من أوروبا التجارة قروناً بأرواحهم وأموالهم وحریاتهم ، وأوطانهم . يا من قسم دياركم هؤلاء النُهَّاب الذين أشعلوا الحرب العالمية ، نعلن لكم :

إن معاهدات القيصر المخلوع السرية التى نص فيها على السماح له بغزو القسطنطينية بالقوة قد مُزِّقَت ومحيت من الوجود ، فالجمهورية الروسية وحكومتها ترفض الغزو المسلح لأراضى دولة أجنبية (؟) .

إن معاهدة تقسيم إيران قد مُزِّقَت وأزيلت من الوجود (؟) .

إن معاهدة تقسيم تركيا ، واغتصاب أرمينية قد مُزِّقَت ومحيت من الوجود » (١) .

كان لهذين البيانين أثر بعيد المدى فى ربوع العالم الإسلامى ، وبخاصة فى تركيا وإيران . وتزايد عدد المؤيدين لسياسة روسيا تزايداً كبيراً وكان من الحتمى

(١) الإسلام قوة الغد - تعريب د . شامة - ص ٢١٨

أن تنجح هذه السياسة فى العالم الإسلامى ما دامت تمنح الحريات المطلقة للشعوب ، وتدفع عنها وطأة الاستعمار الغربى الذى أسفرت التجارب عن مساوئه ووجوهه الكالحة .

* *

● مجلس أعلى للشئون الإسلامية :

وفى يناير سنة ١٩١٨ أنشأت حكومة موسكو لجنة مركزية إسلامية عليا (مجلس أعلى للشئون الإسلامية) للنظر فى شئون المسلمين داخل البلاد . ثم دعمته الحكومة بالمال ووسّعت من سلطانه وسمحت له بالعمل خارج حدود الدولة ، فعلاً البشر الوجه ، وزاد نجم روسيا تألقاً فى ديار الإسلام .

وعقد المجلس الأعلى للشئون الإسلامية مؤتمراً فى ديسمبر ١٩١٨ - أى بعد مولده بعام واحد - وفى أثناء عقد المؤتمر تكوّنت « رابطة تحرير الشرق » ، وجمع المؤتمر أعماله فى مذكرات بعنوان : « الشرق والثورة » واهتم أياً اهتمام بالحديث عن منهج روسيا السياسى الخارجى .. وقد أشاد هذا المؤتمر (الموجه) بالوحدة الإسلامية ، كما بدأت النيات الخفية لروسيا تجاه العالم الإسلامى تتراءى بوضوح من خلال هذه العبارة التى وردت فى المذكرات المشار إليها :

« كانت الوحدة الإسلامية فى جوهرها حركة دينية وطنية . فالإسلام دين سياسى كان له دور لا يُستهان به فى توجيه أجهزة الدولة السياسية فقد كانت حياة المسلمين الدينية إيجابية فى المجتمع ، تخللها الفكر المناضل السياسى . ولهذا تستطيع الوحدة الإسلامية أن تقوم بنشاطها مرة أخرى ، كحركة دينية استعادت هيئتها وهيبتها ، وتقف للنضال ضد الاستعمار الغربى ، فتعقد تحالفاً بناءً مع روسيا الجديدة التى تناضل فى نفس الميدان » .

ولا نريد أن نقطع عن القارىء موارد التفكير الحر بالمبادرة إلى كشف اللثام عن الوجه الحقيقى لروسيا الجديدة وراء هذه السياسة . فسوف نعود لهذا فيما بعد ، ولكن الذى ندعو القارىء إليه أن يتأمل جيداً الجملة الأخيرة التى وضعناها فوق الخط ، فهى « الثقب » الذى يرى من خلاله كل الخبايا .

وأنشأت « رابطة تحرير الشرق » مدرسة عليا فى طشقند لتخريج القادة والرسل والسفراء فى كل من آسيا وإفريقيا لاستقطاب الشعوب الإسلامية وتوجيههم إلى موسكو وسياستها للاستفادة منها فى النضال المرتقب ضد الاستعمار الغربى .

* *

● باكو - وإزاحة الستار عن اللعبة :

فى أوائل خريف عام ١٩٢٠ دعت الحكومة الروسية إلى عقد مؤتمر عام (عالمى) لشعوب الشرق فى مدينة « باكو » عاصمة أذربيجان الآن ، ووجهت الدعوة إلى ٢٥٠ عضو من جميع العالم الإسلامى ، وكانوا يمثلون المسلمين فى جميع أنحاء العالم ، وكان عددهم يُقدَّر بـ ٢٥٠ مليون مسلم . أى عضو واحد لكل عشرة آلاف مسلم .

*

● بريطانيا تتنبه :

أحست بريطانيا بخطر ما تنتهجه روسيا الجديدة ، فوضعت بعض العراقيل فى طريق نجاح المؤتمر ، فألقت القبض على الأعضاء والمدعويين من الهند ، ووضعت القنابل فى السفينة التى ستنقل الوفد الإيرانى (؟ !) ورفضت أن تعطى تأشيرات خروج للأعضاء الذين تسيطر بريطانيا على مقاليد الأمور فى أوطانهم كمصر والعراق والهند .

وقد أحدثت العراقيل التى وضعتها بريطانيا خللاً فى خط سير المؤتمر ، فلم يتمكن من الحضور إليه سوى ١٨٠٠ عضو من إجمالى المدعويين ، وهم ٢٥٠٠ عضو ! ولكنه عدد لا بأس به .. ثم انعقد المؤتمر فعلاً .

*

• وقائع المؤتمر :

باختصار شديد نقول : إن المؤتمر قد أسفر عن واقعتين شديدي الخطورة كانتا فى مقدمة الظواهر التى أدت إلى ما يمكن أن نشبهه بعملية « فسخ الخطوبة » وهى ما تزال على الأعتاب ، والواقعتان هما :

الأولى : أن الشيوعيين أعلنوا فى المؤتمر أن الشيوعية والإسلام صنوان لأصل واحد . أو هما شقيقان يحمل كل منهما خصائص « الأبوة » ولامحها ، بالإضافة إلى الملامح الخاصة بكل منهما . قال الشيوعيين :

« كما أن الإسلام يدعو إلى المساواة بين أتباعه ، ويؤاخى بينهم ، كذلك يضم رباط أخوى كل الذين يؤمنون بالنظام الاشتراكى البلشفى ، الذى يدعو إلى المساواة ، فهو يشبه النظام الإسلامى » (؟ !) .

وقد قابل الأعضاء المسلمون فى المؤتمر هذا الزعم بالرفض التام ، وأصيب الشيوعيون بصدمة عنيفة . فهم ما فعلوا من قبل من التزلف والبيانات المعسولة تجاه العالم الإسلامى إلا من أجل « اصطبياد المسلمين » ولكن المسلمين فى هذه المرة لم يكونوا كالعرب الذين كانوا قد حُدِّعُوا بغزل بريطانيا الكاذب وشنُّوا حرباً شعواء ضد أنفسهم قبل أن يشنُّوها ضد تركيا إخوانهم فى الدين .

الواقعة الثانية : كانت روسيا تهدف إلى قيام ثورات تحريرية فى العالم الإسلامى ضد الاستعمار الأوروبى ، وقد ألمحت الفقرة التى نقلناها ووضعنا جزءاً منها فوق الخط فيما مضى إلى هذا المعنى . وأن روسيا ترحب بهذا النوع من الحملات والثورات ، والإسلام ، وهو دين سياسى كما جاء فى الفقرة المشار إليها ، قادر بوحدته أن يقوم شعوبه بهذا الدور . وجاء الشيوعيون إلى المؤتمر ، وأرادوا أن يطرقوا الحديد وهو ساخن فأعلنوا للمؤتمرين أن تلك الثورات المزمع القيام بها فى أرجاء العالم الإسلامى يجب أن تقوم على الفكر الاشتراكى ، وهنا ظهرت نية روسيا الجديدة فى احتواء العالم الإسلامى ، وجعله مسرحاً

لانطلاق الأيديولوجية الشيوعية الحبيسة حتى ذلك الحين أى أن روسيا نظرت إلى العالم الإسلامى إلى أنه « كبش هزبل » (؟ !) ثم أرادت أن تسمنه ثم تذبحه وتأكله » (؟ !) .

* *

● رد الفعل :

انقسم المسلمون المؤتمرون أمام هذه « اللعبة » قسمين كبيرين ، قسم رحّب بالفكرة ولم ير فيها أية غشاضة ، وقسم فطن إلى أصول اللعبة فرحّب بمساندة روسيا للثورات التحريرية فى العالم الإسلامى ، وفى نفس الوقت استبعد أن تغذى روسيا تلك الثورات بفكرها الشيوعى . وأن على روسيا أن تقتصر بتوجيهها الفكرى على الثورات التى تقوم بها داخل حدودها . ومعنى هذا أن على روسيا أن تنظر إلى العالم الإسلامى على أنه « صديق كفاء » وليس دمية يحركها الشيوعيون متى وكيف شاءوا .

* *

● البديل :

خابت آمال روسيا نسبياً فى مؤتمر « باكو » وتبين لها أن احتواء العالم الإسلامى كله - وفى جرعة واحدة - من أصعب ما يكون إن لم يكن مستحيلاً . وقد أملت عليها هذه الخيبة أن تبحث عن بديل ممكن تحقيقه . فاتجه تفكيرها إلى ثلاثة أقطار إسلامية غير عربية تقع قريباً من حدود روسيا ، وهى : الأفغانستان - إيران - تركيا . ووطّدت علاقاتها مع هذه الدول كُلاً على حدة :

● أفغانستان :

كانت أفغانستان واقعة تحت التبعية الكاملة لإنجلترا ، فبدأت روسيا بتشويه سمعة أصدقاء إنجلترا فى أفغانستان ، ويثّت عملاءها فى داخل البلاد ، وسخت مساعداتها المادية ، وبفضل الدعاية الشيوعية تكونت « حركة الاستقلال

الوطنى الأفغانىة » وكانت هذه الحركة هى القشة التى قصمت ظهر البعير (إنجلترا) وكان أول انتصار لسياسة روسيا فى أفغانستان على إنجلترا حين دبّ النزاع بين أفغانستان والهند على مسألة الحدود بين البلدين عام ١٩١٩ . ومُنّى الجيش الإنجليزى بهزيمة مرّة آنذاك ، ثم مُنيت الدبلوماسية الإنجليزىة بهزيمة أشد مرارة حيث قبلت شروط صلح « روالبندى » فى نفس العام ١٩١٩ وأخيراً جنت روسيا ثمار هذه السياسة بتوقيع معاهدة مع أفغانستان عام ١٩٢١ جاء فيها :

« إن الطرفين - روسيا ثم أفغانستان - قد التزما بأن لا يعقد أحدهما مع قوة ثالثة معاهدة تضر بمصالح الطرف الآخر .. ويتدعيم التمثيل الدبلوماسى بين البلدين . وأن تقدّم روسيا مساعدة مالية كريمة لحكومة كابول ... » إلخ .

وقدّمت روسيا تنازلات أخرى استقطبت بها ولاء أفغانستان السياسى والاقتصادى . والحق يقال : إن الأفغانيين وقفوا عند حدود معلومة فى علاقة روسيا بهم . فلم يسمحوا للمبادئ الشيوعية داخل حدودها . ولما يئست روسيا من بثّ مبادئها داخل الأفغان أخذ عملاؤها يوجّهون تلك الدعاية إلى الهند .

* *

● إيران :

وخطت روسيا خطوات جبارة لاحتواء إيران . ومن أبرز تلك الخطوات وأسرعها إرسال فرق من الجيش الأحمر إلى فارس ، ورُحّب به الشعب والحكومة معاً ليكون درعاً لهم ضد النفوذ الإنجليزى ، ولكن مناقشات قام بها بعض الإيرانيين حين اكتشفوا المهمة الحقيقية للجيش الروسى فى فارس ، كادت تفتت الفرصة على روسيا ، لولا أنها أسرعت إلى تفاديها .

وقد تمكنت روسيا من عقد معاهدة مع حكومة « فارس » فى شهر فبراير ١٩٢١ قدّمت من خلالها تنازلات سخية أسالت لعاب الإيرانيين للترحيب بروسيا كصديق وفى ، وسند قوى ضد الاستعمار الغربى . فالتزمت بحدود البيان العام

الذى كانت روسيا قد قررت فيه مساندتها للعالم الإسلامى ، وإلغاء كل المعاهدات التى كان القيصر قد أبرمها من قبل ضد حرية البلاد الإسلامية ومصالحها وجعلها مناطق نفوذ بين روسيا وإنجلترا وغيرها من دول الغرب الاستعمارية . كما ألغت بمقتضى المعاهدة كل الديون التى على فارس لروسيا . ووهبتها كل المنشآت الروسية داخل إيران .

* *

● تركيا :

وتقررت روسيا من تركيا . وقامت روسيا فى هذا المجال بعمل متواصل لدرجة أن عرضت المساعدة العسكرية برجال جيشها ليساندوا تركيا فى حربها ضد المستعمرين ، ولكن أتاتورك رفض هذا العرض . وأخذت روسيا تصطنع مظاهر الود والتزلف إلى تركيا حتى تمكنت من عقد معاهدة صداقة بينها وبين تركيا عام ١٩٢١ فى ١٦ مارس . . وحاولت روسيا عقب ذلك عن طريق عملاتها فى تركيا قيام حزب شيوعى يكون سنداً لها من الداخل . وكل هذه المعاهدات والتنازلات كانت البديل عن احتواء العالم الإسلامى الذى كان هو الهدف الأول لروسيا عقب قيام ثورتها الحمراء ، وهكذا حققت روسيا بعض النجاح فى العالم الإسلامى المتاخم لحدودها .

كما سلكت سياسة شبيهة فى البلدان الإسلامية البعيدة عن حدودها عن طريق عقد المعاهدات والصداقات وقيام الأحزاب الشيوعية داخل البلاد . وما تزال روسيا تنتهج تلك السياسة إلى الآن فى بعض العواصم العربية كلما سنحت لها فرصة الظهور .

وروسيا تعمل جاهدة - الآن (١٩٩٠) - على بث مبادئها فى العالم الإسلامى عن طريق الأحزاب الشيوعية أو عن طريق عملاتها وملحقاتها الثقافية ونشراتها وكتيباتها التى توزع مجاناً فى أحيان كثيرة ، وعن الصحف الموالية لهم ، أو الزعماء الذين تجنّدهم لخدمة مصالحها وأيديولوجياتها وتدريب دعايتها

تدريباً ذكياً لىخدموا الشيوعية متسترين وراء شعارات تخفى وجه الشيوعية الخبيث . ووسائلها فى هذا المجال لا تكاد تُحصى . والهدف الأول والأخير هو القضاء على الإسلام بأى ثمن ؛ لأنه العائق والمنافس الوحيد لسيطرة المبادئ الحمراء .



● أثر هذه السياسة :

من البديهي أن سياسة روسيا المعسولة تجاه العالم الإسلامى لم تحقق المقصود الأهم منها ، وهو احتواء العالم الإسلامى فكرياً وأيديولوجياً . وأنها رضىت بالبديل الذى أشرنا إليه ..

ومن ناحية العالم الإسلامى فإنه استفاد بعض الإيجابيات من خلال سياسة روسيا تجاهه . فنمت لديهم موجات من الوعى المبشّر . كما تخلّصت بعض الأقطار الإسلامية من وطأة الاستعمار الغربى بفضل مساندة روسيا لهم ، ورُبُّ ضارة نافعة ، كما يقول المثل .

أما من ناحية الغرب ، فقد كان أبرز أثر لسياسة روسيا نحو الشرق الإسلامى أن اضطرت إنجلترا لتعديل سياستها نحو البلاد الإسلامية التى كانت واقعة تحت سيطرة التاج البريطانى . فعدلت عن أساليب الغزو المسلح والقمع إلى اتخاذ الوسائل الدبلوماسية فى رسم سياستها نحو الشرق وفى برامج تنفيذها . وقد استفاد الشرق من هذا الاتجاه فزال عنه كابوس الحروب ، وأفاق نوعاً ما إلى نفسه ، ويمكن إيجاز الموقف الجديد لبريطانيا فى النقطتين الآتيتين :

الأولى : إعتماد بريطانيا على معتمديها السامين فى تنفيذ ما تراه فى البلاد الإسلامية ، والإشراف على برامج التلقى والتنفيذ .

والأخرى : اصطناع عملاء مخلصين لها من الوطنيين يروجون لسياساتها ، ويدعون بنى وطنهم إلى الإيمان بها واحترامها ، مع توليتهم المناصب المؤثرة فى

القيادة وصنع الرأى العام والإغداق عليهم بالنعم والألقاب الرفيعة البراقة ليكونوا أكثر جذباً لبنى وطنهم^(١) ، واصطناع أساليب التمويه والنفاق بشكل عام .

ويمكن كذلك أن نقول إن خصوم الإسلام من زعماء أوروبا ودولهم الاستعمارية عولّوا أولاً على الغزو العسكرى . وثانياً على الدبلوماسية الهادئة . وثالثاً : على إيجاد عملاتهم بصفة مستمرة من أبناء الوطن نفسه . وليس لهذه الوسيلة بديل ، فهى تقع فى نهاية المطاف لأنها أخلد وأبقى ، وأقوى .

ويحضرنى - الآن - معنى كلام لأحد المندوبين السامين لإنجلترا فى مصر قاله فى آخر عهده بمصر - وكان صادقاً فيما قال - وإليك معنى كلامه لا نصه :

« إن الإسلام هو العقبة الكئود التى تتصدى لأى نفوذ أجنبى فى مصر . وإننا سنرحل عن مصر ، ولكن لن يصلح لحكم مصر إلا الذين سيتربون تربية غربية .. سنرحل عن مصر ، ولكننا سنحكم مصر بعد رحيلنا عنها بـ«روس مصرية» ، ومبادئ وقيم أوروبية » (!؟) .

والواقع أنهم نجحوا إلى حد بعيد فى تنفيذ المخطط الذى أفصح عنه « كرومر » وأثبتنا معناه فيما تقدم .

* *

● خطبة لورد لويد :

أرخص سلاح يستعمله خصوم الإسلام هو النفاق والكذب والتمويه . وبريطانيا بالذات جنت أئيع الثمار من حقل النفاق والخداع ، وما قصة الثورة العربية إبّان الحرب العالمية الأولى ببعيدة عن الذاكرة ، وقبيل الحرب العالمية الثانية علت أصوات بعض الزعماء الغربيين بالتودد إلى الإسلام فى محاولة أخرى للتمويه على المسلمين وكسب رضاهم ولو إلى حين . فقام لورد لويد ،

(١) على سبيل المثال منحوا أحمد لطفى السيد لقب : أستاذ الجيل ، وطه حسين : عميد الأدب العربى ، وقاسم أمين : محرر المرأة .

وكان مندوباً سامياً سابقاً لإنجلترا فى مصر . قام هذا « اللورد » بإلقاء خطبة معسولة فى أحد مساجد لندن . وكان مما جاء فيها :

« أعتقد أن الإمبراطورية البريطانية لا يمكنها البقاء دون حماية كاملة من المسلمين فى جميع أنحاء العالم ، فالإسلام - على ما أعتقد - بإمكاناته الروحية والفكرية هو إحدى القوى الجوهرية فى العالم ، وسوف أعمل - دائماً - كل ما أستطيعه لتوجيه إنجلترا إلى إنشاء علاقات ود وصداقة مع الإسلام فى كل مكان فى العالم ... » (؟ !) .

إن أقل ما يوصف به هذا الكلام أنه لعبة مكشوفة من ألاعيب أعداء الإسلام ، وبخاصة : إنجلترا . فهل كان اللورد المحترم صادقاً مع نفسه ومع الواقع حين قال : إن الإمبراطورية البريطانية لا يمكنها البقاء إلا بحماية كاملة من المسلمين ؟!

إن المسلمين ما أضيروا من دولة استعمارية مثلما أضيروا من إنجلترا . فهى التى استزلت الشعوب الإسلامية ، ووطنت ديارهم وهم لها كارهون . وهى التى وزعت دولهم وجزأت أوطانهم لإحكام القبضة عليهم ، وهى التى وضعت الألغام فى كل بلد إسلامى كان لها وجود فيه قبل أن ترحل عنه . هذا هو الواقع ، فكيف يكون اللورد المحترم صادقاً فيما قال !! إن الذى جاء فى هذه الخطبة يعتبر إهانة فى حد ذاته للمسلمين ، إذ معناه أنهم « أغرار » لا يميزون بين الخداع والصدق ، ويسيرون وراء كل ناعق . وكفى بذلك ضياعاً ..

والحق يقال .. إن المسلمين كانوا قد عرفوا ألاعيب بريطانيا وحيلها ، فقابلوا هذه الخطبة بوعى مشرف ، وكثرت التعليقات الناقدة لها والمتسائلة عم تريد بريطانيا من المسلمين بمثل هذه المراوغات .

والشئ بالشئ يُذكر . فموسولبنى الزعيم الإيطالى حاول - كذلك - شراء سرائر المسلمين قبيل الحرب العالمية الثانية (عام ١٩٣٣) ، وأعلن فى رحلة له إلى ليبيا : أنه صديق الإسلام والمدافع عنه ؟!

وإن المرء ليتساءل سواء أكان مسلماً أو غير مسلم : كيف يكون موسوليني صديقاً للإسلام ومدافعاً عنه . وكانت أوروبا كلها - وما تزال - قد أجمعت على ضرب الإسلام وشل قواه فى الحياة ... ؟!

* * *

● خداع نابليون :

لست أدرى لماذا كان أعداء الإسلام والمسلمين فى بداية اتصال أوروبا بالشرق الإسلامى . لست أدرى لماذا كانوا يفترضون فى المسلمين أنهم « مهايل » أو « سذج » يمكن إغراؤهم والتغريب بهم . فروسيا وإنجلترا وإيطاليا والبرتغال من قبل عاملت المسلمين بهذا الأسلوب . وقد ضربنا الأمثلة بالنسبة لروسيا وإنجلترا وإيطاليا منذ قليل . أما البرتغال - دولة الاستعمار العجوز - فقد تسللت إلى مخادع البلاد الإسلامية للوقوف على أسرارها والاستفادة منها فى فرض التحكم على تلك البلاد ، وسمت هذا التجسس والخداع كشوفاً علمية . وانطلت هذه الخديعة على المسلمين . ومن المعروف أن الذى سهّل مهمة « فاسكودى جاما » فى رحلته إلى جزر الهند الشرقية (أندونيسيا) رجل عربى مسلم يدعى : « أحمد بن ماجد » . وأن خرائط علماء المسلمين عن البحار والمواقع هى التى قد فتحت كل المغاليق للرحالة البرتغالى « جاما » .

وما دام الأمر كذلك ، فما الذى يمنع فرنسا أن تسير فىنا نفس السيرة . فنحن قوم كنا لا نمانع أن نُلدغ من الجحر الواحد مرات . وكنا - ولعل بعضنا ما يزال - نحسب كل أصفر ديناراً حتى ولو كان الاصفرار لون عقرب أو أفعى ؟!

أجل .. ما الذى يمنع فرنسا من هذه السيرة ؟ فبطلها « العظيم » نابليون بوناپرت حين جاء بحملته إلى مصر عام ١٧٩٨ فما كان يضع أقدامه على أرض عروس الثغر « الإسكندرية » حتى يوجه منشوراً إلى القاهرة وضواحيها . يقول نابليون :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، لا إله إلا الله ، لا ولد له ولا شريك له فى

مُلكه . من طرف فرنساوية المبنى على أساس الحرية والتسوية السر عسكر الكبير ، أمير الجيوش فرنساوية بونايرت ، يُعرّف أهالى مصر جميعهم أن من زمان مديد الصناجق ^(١) الذين يتسلطون فى البلاد المصرية يتعاملون بالذل والاحتقار فى حق المِلَّة فرنساوية .

قد قيل لكم : إننى ما نزلت بهذا الطرف إلا بقصد إزالة دينكم . فذلك كذب صريح فلا تصدقوه وقولوا للمفترين : إننى ما قدمتُ إلا لأخلص حقكم من يد الظالمين . وإننى أكثر من الممالك أعبد الله سبحانه وتعالى ، واحترم نبيه ، والقرآن العظيم .. (؟) .

أيها المشايخ والقضاة والأئمة ... وأعيان البلد .. قولوا لأمتكم : إن فرنساوية هم أيضاً مسلمون مخلصون ... « (؟) .

وانظلت هذه الخديعة ، وصدّق الناس أن نابليون مسلم ، وأن فرنساوية الذين جاءوا معه - كذلك - مسلمون ؟!

وانظلت الكذبة على صاحبها نابليون فأطلق لحيته وحمل المسبحة بين أصابعه ، وغير اسمه إلى « عبد الله » ؟!

وانفتحت له المغاليق فى مصر ، لدرجة أن نابليون كان يرأس مجالس العلماء .. ؟ يا للعار ، بل يا للهول ؟!



● غياب التوجيه الإسلامى :

تلك المواقف الخادعة التى قصصناها ، وإن قول بعضنا بعضاً بشئ من الريبة والوعى فإن سلكنا الأديين قد انخدعوا ببعضها وغرقوا فيها إلى الأعناق ، كما حدث فى الثورة العربية عام ١٩١٦ وكما حدث أمام نابليون مصر ، ولأعبيه

(١) يقصد به « الصناجق » : الممالك ، الذين كانوا يُضَيِّقُونَ الخناق على الفرنسيين فى مصر والشام .

المكشوفة فى بداية الأمر .. والسبب فى هذا كله أن المسلمين - العرب - كانوا كالعيس التى أهلكها الظمأ والماء فوق ظهورها محمول - كما يقول الشاعر .. والماء الذى كان محمولاً على ظهور المسلمين هو القرآن وأحاديث رسوله ﷺ ، وما فيها من توجيهات مفيدة جداً فى مثل هذه المواقف .

أين كان العمل بقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ ﴾ ^(١) .
وأين كان العمل بقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا ﴾ ^(٢) .

وأين كان العمل بقوله صلى الله عليه وسلم : « الْمُؤْمِنُ كَيْسُ فُطْنٍ » ؟!
فأين ذهب كياسة المؤمن وفطنته يا تُرى ؟
وأين كان العمل بقوله صلى الله عليه وسلم : « لا يُلدغ المؤمن من جحر مرتين » ؟!

إن العربى فى الجاهلية كان ذا وعى وحكمة بمثل هذه المواقف وقد سجل شاعرهم هذا بكل وضوح فقال :

غيرُ لاهٍ عداك فاطرح اللهو ولا تغترر بعارضٍ سلّم
وقال آخر فأصاب :

إذا رأيتَ نيوبَ الليث ضاحكة فلا تظنَّ أن الليث يبتسم
لقد لعبت المحاولات الخادعة لاحتواء العالم الإسلامى فصلاً طويلاً فى تمثيلية الدهاء والمكر ، التى وضعها وأخرجها وأجاد حبكتها دهاة الغرب ، وسماسرة الحيل ، وأضير الإسلام والمسلمون من جرائمها . ولن يحو عار ما فات سوى

الوعى والتنبه ، والحذر من تكرار أمثاله ، فما أكثر أصدقاء اللسان للشعوب الإسلامية - الآن - وهم لا يتورعون من استعمال التمويه والخداع إذا أتيحت لهم الظروف .. فلنكن أكفاء لأعدائنا ، ولأصدقائنا على حدٍ سواء ، ليحترمنا الصديق ، ويخافنا العدو . فلا فضل للإنسان فى الحياة : إذا طمع فيه عدو ، أو استخف به صديق ..

* * *